ماتاهارى

صباح يوم العاشر من أغسطس ١٩١٦م الجو حار خانق ، والحرارة شديدة الوطأة ظهر التعب والإرهاق بوضوح على وجه الكابتن « دى لو » ، الذى سار بخطى وئيدة ليفتح نوافذ حجرة مكتبه القابع فى وزارة الدفاع الفرنسية لعلها تسمح بدخول نسمة هواء رطبة ، تلطف قليلاً من وطأة الحرارة .

وقف الكابتن « دى لو » بقامته الفارهة ، وقوامه الممشوق فى وسط الحجرة ، شاب قوى يافع يبلغ من العمر ٣٤ عامًا ، له شارب صغير ، وامتد بصره إلى الأمام وظهرت على وجهه علامات التوتر والقلق وهو يفحص بعناية ملفًا مكتظًا بالأوراق ، وطاف بخياله سؤال ، ظل يلح على خاطره بقسوة ويقلق باله ... كيف تضطره الظروف ، وهو العسكرى المحنك أن يقضى يومه داخل مكتبه ، حيث الهدوء والسكينة ، بينما ينشغل زملاؤه فى السلاح معرضين حياتهم لخطر الموت ، داخل الخنادق فى فردين حيث تدور رحى المعارك العنيفة .

ولا شك أن أمرًا جللاً وحادثًا هامًّا دفع الكابتن « دى لو » لهجر الميدان على مضض والعودة على عجل إلى مكتبه بوزارة الدفاع أمر يستحق أن يتصرف فيه رجل له كفاءته ومقدرته ، خاصة وهو الرجل المسئول عن المكتب الثانى الذى يتولى مهمة مطاردة الجواسيس .

فى ظهر هذا اليوم كان الكابتن « دى لو » قابعًا فى مكتبه ، فى انتظار مقابلة عاجلة لشخصية هامة ، تجلس الآن فى حجرة انتظار جانبية ، وهو يؤجل فى اللقاء قدر المستطاع عن قصد بهدف إثارة أعصاب هذه

الشخصية ، وإدخال الروع والقلق فى قلبها ، وحتى تتاح له الفرصة الكافية للدراسة المتأنية لأوراق الملف ومتابعة كل كلمة فيه بروية وهدوء .

جلست « مارجريتا » جيرتد زيل فى الحجرة الجانبية فى انتظار لحظة السماح بالدخول ومقابلة كابتن « دى لو » ، وكانت امرأة رشيقة فاتنة تبلغ من العمر أربعين عامًا بالضبط فهى من مواليد شهر أغسطس من عام ١٨٧٦م حيث ولدت فى جزيرة جاوه من أم أندونيسية ، وأب هولندى ، وقضت دراستها فى معبد هندى ، تدربت فيه على الرقص الهندوسى ، وتزوجت « ماتا هارى » من ضابط فى الجيش الهولندى ، كان سكيرًا قاسيًا عنيفًا ، وبالرغم من أن هذا الزواج أثمر طفلة جميلة ، إلا أن ذلك لم يمنع من توتر العلاقات بينهما إلى حد الكارثة ، وبمجرد عودتهما إلى أوربا عام ١٩٠٢م طلبت « مارجريتا » الطلاق وفرت هاربة إلى باريس .

توقف الكابتن « دى لو » عن القراءة ، كان فى حاجة ماسة ، لاسترجاع كافة التفاصيل الدقيقة للسيرة الشخصية للضيفة الجالسة فى الانتظار بالخارج ، أما بقية أوراق الملف فهو يحفظها عن ظهر قلب .

فى باريس حاولت « مرجريتا » زيل العمل فى المسرح ، ولكنها أثبتت فشلاً ذريعًا لأنها لا تمتلك الموهبة اللازمة للتفوق والنبوغ ، لكى تصبح فنانة ذات شأن ، وفجأة ، لمعت فى ذهنها فكرة عبقرية مؤداها استغلال سكنها كمدرسة لتعليم الرقص الشرقى .

ويعتبر يوم ١٣ ديسمبر ١٩٠٥م هو بداية النصر والتفتح والازدهار فى حياة « مرجريتا » زيل عندما أتيحت لها الفرصة للانضمام إلى منتدى مستر جيميه الذى يضم مجموعة من رجال السياسة – الفنانين – علاوة على سفيرى اليابان وألمانيا ، وقدمها جيميه إلى ضيوفه من نجوم المجتمع تحت اسم « ماتا هارى » ، وهو الاسم الذى اشتهرت به فيما بعد وبدأ العرض داخل المكتبة التى

يعلوها سقف مقبب ، الأضواء خافتة ، الجو يشوبه غموض ، وبتلات الزهور الملونة تغطى الأرضية ، وأخذت « ماتا هارى » فى الرقص ، وبدت طويلة يافعة نحيلة ذات قوام يسلب الألباب ، ناعمة ذات سيقان ساحرة . لها عينان خلابتان ، وشعر طويل أسود فاحم ، وصوت ذو جرس موسيقى ناعم .

كان النجاح مذهلاً بحيث تنازعتها كافة المجتمعات الفرنسية الراقية ، ونالت المحبة والاحترام من كافة نجوم الفن والأدب والسياسة ، وبدءًا من هذه الأيام « وماتا هارى » تقع تحت الرقابة الصارمة من كابتن دى لو ، الذى لفت نظره الاهتمام المتزايد الفظيع لعشاقها ومعارفها ، فمن الجانب الفرنسى أصبحت « ماتا هارى » عشيقة أغلبية نواب الجمعية التشريعية ، ووزير الخارجية ، وكثير من الرتب العسكرية الرفيعة ، أما من الجانب الألمانى فعلاقاتها أكثر لمعانًا وبريقًا فهى عشيقة دوق برون سوسك ، وعلاقاتها وطيدة مع رئيس شرطة برلين العاصمة الألمانية .

وفى يوليو ١٩١٤م عندما كانت الحرب على وشك الوقوع غادرت « ماتا هارى » الفندق الأثير لديها فى فرنسا وعادت مسرعة إلى برلين ، وجعلت منها مركزًا رئيسيًّا لممارسة نشاطها ، وفى أغسطس ١٩١٤م ، تناولت غذاءها مع رئيس الشرطة الألمانية فى برلين ، واتفق موعد هذا الغذاء مع وقت احتشاد الجنود الألمانية ، وتعبئة القوات ، ومن المؤكد أن مغزى هذا اللقاء لا يمكن أن يمر مرور الكرام على ألمعية وذكاء شخصية فذة مثل الكابتن « دى لو » ، يبدو أن المكتب الثانى لم يكن هو أول من تنبه إلى نشاط « ماتا هارى » ، وبمجرد انتهائها من وجبة الغذاء عادت إلى موطنها الأصلى فى هولندا ، ومن هناك قامت بأداء عدة رحلات متكررة إلى إنجلترا ، وهناك راقبتها إدارة المخابرات الإنجليزية عن كثب وبمجرد عودتها إلى فرنسا اتصل رجال مكافحة الجاسوسية الإنجليز بنظائرهم الفرنسيين وأخبروهم بما لديهم من معلومات .

كانت هذه هى كل المعلومات المدونة فى الملف فى تاريخ ١٠ أغسطس

١٩١٦م ، يوم اللقاء المشهود بين « ماتا هارى » والكابتن « دى لو » ، وفى هذا اللحظة لم يكن فى الأوراق ما يدين « مارجريتا زيل » الشهيرة « بماتا هارى » ، ولا يزيد الأمر عن شكوك وظنون تضعها فى موضع الاشتباه ولكن لا توجد قرينة مؤكدة يمكن الاعتماد عليها .

ولما تأكد الكابتن « دى لو » أنه ترك ماتا هارى تنتظر بالخارج لفترة كافية ، استدعاها للدخول .

دخلت « ماتا هارى » مرتدية تايرًا ، غامق اللون ، وتضع على رأسها قبعة جميلة مزينة بريشة رمادية .. وبالرغم من مظهرها الرصين إلا أن دخولها للمكتب أضفى عليه الكثير من الحيوية والبهجة ، أمور لا يمكن التعبير عنها بدقة ، ولكن يمكن القول أن لها حضورًا قويًا يزيد المكان إشراقًا وبهاء ، لاشك أنها تتميز بمواصفات خاصة تكمن فى شخصيتها الساحرة ، تفاصيل دقيقة تتوافر لدى أى امرأة أخرى ، ولكنها عند ماتا هارى ، لها طعم خاص ومذاق مختلف ، قد يكمن السر فى مشيتها ، أو فى أسلوبها الناعم ، أو فى حيويتها .. لم يستطع الكابتن دى لو أن يخفى انبهاره بجمالها وشخصيتها ، وتمتم بصوت هامس « إنها لا تمشى على الأرض بل ترقص فى خيلاء وإن لها لسحرًا خاصًا » .

وقفت « ماتا هارى » منتصبة القامة أمام الكابتن وفاحت فى الحجرة رائحة عطر جميل له تأثير خاص .

« يا للتعقيدات كابتن !! كلما فكرت فى صعوبة الإجراءات التى تطلبونها من المسافر لبضعة كيلو مترات ... يا لفظاعة ما يطلبون » .

عبرت « ماتا هارى » عن مشاعرها بصوت به بهجة محببة ثم أشاحت بوجهها بطريقة لا يمكن التعبير عن رقتها ولطفها .. ولم يستطع الكابتن « دى لو » أن يخفى إعجابه بوقاحتها وجسارتها وأقترب منها متسائلا أية تعقيدات ، وما هى هذه الكيلومترات التعسة التى تتكلمين عنها ؟

أجابت « ماتا هارى » « معادلة صعبة – غاية فى القسوة .. بصعوبة بالغة عدت إلى فرنسا » .. والواقع أن « ماتا هارى » قدمت من قبل طلبا للعمل فى مجال رعاية جرحى الحرب ، واختارت أن تعمل فى موقع فيتيل الذى يبعد عدة كيلو مترات عن الجبهة الأمامية ، وللمصادفة المحضة سبق للقادة الفرنسيين أن قرروا بناء مطار سرى للغاية فى موقع قريب من فينيل .

انتظرت « ماتا هارى » بصبر إجابة الكابتن « دى لو » ولكنه لم ينبس بكلمة واحدة ، ولما فاض بها الكيل استكملت حدَيثها « أخيرًا .. كابتن .. ألا توجد وسيلة لمساعدة امرأة ترغب فى أن تتفانى فى العمل من أجل فرنسا ، لا شك أن كل هؤلاء الجرحى فى حاجة ماسة لمد يد المساعدة والرعاية وأن يشعروا بدفء المحبة والحنان » .

وقرر أخيرًا الكابتن « دى لو » البدء فى الكلام .. واختار الوقت المناسب ليلعب بدوره لعبته المفضلة ، وأن يرمى القفاز فى وجهها ، وتساءل فى نفسه .. « ماتا هارى » تريد الذهاب إلى فينيل .. إنها الطريقة الوحيدة التي تستطيع عن طريقها نزع القناع ، وكشف الأسرار التى تخفيها هذه المرأة الغامضة .

« سيدتى إنه ليس خطئ ولا ذنبى أن تقع فينيل فى نطاق المنطقة العسكرية ، التى لا يمكن لأى مدنى أن يخطو بداخلها دون الحصول على إذن شخصى منى » .

– وهل أطمع فى الحصول على مثل هذا التصريح ؟

– بالتأكيد ولم لا ؟ ، هل لديك باسبور وصورة شخصية .

أضاء وجه الراقصة بابتسامة ساطعة وأدرك « دى لو » فى الحال أنها حتمًا وبلا شك تستطيع بمثل هذا السحر والإغراء أن تحقق نجاحًا هائلاً فى عالم الجاسوسية وتصيد الأخبار .

أجابت « ماتا هارى » لدى صورتين فوتوغرافيتين ويمكنك إذا أردت الاحتفاظ بواحدة منهما .

رفض الكابتن « دى لو » الصورة ببرود ، وأصيبت « ماتا هارى » بخيبة أمل مريرة ، وإحباط فظيع ، وهى التى لم تتعود مثل هذا الجفاء ، خاصة أمام الرجال ، وهى التى تثق بقدراتها الفائقة ، كما أنها لا تحب أن تتعرض لمثل هذه المواقف المهينة ، ولذا أسرعت بتوقيع الأوراق ، وعقب الانتهاء من ذلك صحبها « دى لو » حتى باب الخروج ، بعد الحصول على التصريح المطلوب بكثير من الجفاء والقسوة .

كان الكابتن « دى لو » يعرف بلاشك أن إعطاءها مثل هذا التصريح يعتبر مخاطرة ، ولكنه فى الوقت ذاته كان يعدها من ضمن المخاطر المحسوبة ، خاصة وأنه قرر منذ اللحظة الأولى وضعها تحت المراقبة الدقيقة ، وهى التى تدخل ضمن دائرة نشاطاته واهتماماته اليومية ، ومن جهة أخرى وضع خطة محكمة لكشف أسرارها .

قام « دى لو » بتجنيد ضابط صغير السن جميل الطلعة يمر فى مرحلة النقاهة فى فينيل كى يبذل كل ما لديه من جهد وطاقة للاتصال بالراقصة ومتابعة حركاتها عن كثب .

وفى الأيام التالية انكب « دى لو » فى فحص وتمحيص جميع التقارير الواردة من هذا الضابط ، الذى اجتهد فى جمع الكثير من المعلومات ، وكلها كانت تشير إلى خلو تصرفات « ماتا هارى » من أى شبهة ، ولكن حدث شىء ما غير متوقع ، شىء مذهل لم يتوقعه دى لو ، حيث تشير الأوراق إلى وقوع « ماتا هارى » فى غرام ضابط روسى ، يدعى « ماسلوف » أصيب أثناء القتال فى عينيه وأصبح ضريرًا ، وتؤكد جميع التقارير أن « ماتا هارى » هائمة فى غرام هذا الجريح لدرجة الجنون .

« ماتا هارى » عاشقة تقع فى الحب ! ، هذا آخر ما يمكن تصديقه ،

وآخر ما يتوقعه « دى لو » ، ولكن جميع التقارير تخلو من أى إشارة لتورطها فى عمليات تجسس من أى نوع .

وعلى ذلك لم يكن الكابتن « دى لو » على استعداد لغلق ملف « ماتا هارى » .. وفى بداية نوفمبر ١٩١٦م قرر دى لو أن يواجه الأمر بنفسه ، وسافر إلى فينيل ليراقب الحوادث هناك عن كثب ، والتقى بماتا هارى التى بادرته بالمصارحة على الفور قائلة له :

– لقد حدث لى فى فينيل أمور لا يمكن تخيلها بسهولة هل تصدق ؟ لقد وقعت فى غرام أحد الضباط الروس ! وأصارحك القول هذه هى أول قصة حب حقيقية فى حياتى .

أجاب « دى لو » ... « حسن .. عليك بالإسراع بالزواج » .. اكتسى وجه الراقصة الجميل بكآبة وأجابت :

– للأسف ... إنها قصة حب تعسة .. وهى تقابل برفض تام من عائلته ، خاصة من أبيه الذى يعمل أميرالاً فى الجيش الروسى .. وأعتقد أن نجاح هذا الزواج يتطلب توافر مبلغ كبير من المال .

أصيب « دى لو » بدهشة بالغة وبدأ يفهم الحقائق الخفية وراء مسعى « ماتا هارى » وانطلقت منه زفرة حادة طويلة . وأخيرًا قرر أن يلقى بحبائله حولها .. وفجأة قالت « ماتا هارى » :

– أنا فى حاجة ماسة لمليون فرنك

انطلقت من فم رئيس المكتب الثانى صفارة خافتة قصيرة ، وهو يتمتم مليون ! ياله من مبلغ ضخم .

أجابت « ماتا هارى » ... وفى مقابل هذا المال أنا على أتم استعداد لتقديم خدمات جليلة تفتح أمامك أبوابًا كثيرة للمجد .

مدت العاشقة الولهانة عنقها إلى الأمام وهمست بصوت خافت :

– أنا « ماتا هارى » .. وإذا أردت يمكننى العمل كجاسوسة ماهرة لحسابك .

– هذا يعنى .

– أنا عشيقة « كرو نبرنز » ، وهو لا يستطيع أن يرفض لى طلبًا ... ألا يستحق ذلك مبلغ المليون .

وقرر « دى لو » أن يكشف جميع أوراقه .

– أنا لا أستطيع أن أقدم وعدًا بدفع أى شىء .. ولكن يمكن تكليفك بمهمة ما .. وسأكون معك صريحًا للغاية .. « ماتا هارى » .. لقد أمرت بوضعك تحت المراقبة لمدة طويلة ، ولدى شكوك ... شكوك مؤكدة أنك تعملين كجاسوسة لحساب الألمان ، وعلى ذلك إذا نجحت فى المهمة التى سأكلفك بها حالاً . يمكننا أن نتجاوز عن أخطائك السابقة .ونتركك تعيشين فى هدوء .

– وإلا ...

– وإلا تعرضت لمتاعب جمة وسنكون مصدرًا كبيرًا لإزعاجك .

وقف « دى لو » واتجه من فوره نحو خريطة لأوربا معلقة على الحائط ، ثم خط بالقلم الأحمر خطًا يشير نحو بلجيكا .

– بلجيكا .. هذا هو المكان المختار للبدء فى مهمتك وأجابت « ماتا هارى » وقد بدأ الاضطراب البالغ فى صوتها .

– ولكنك لن تطلب منى عبور الخنادق فى خطوط القتال الأمامية .

– ليس بالضبط .. لأن هذا النوع من المأموريات نادرًا ما يتطلب الذهاب المباشر فى خط مستقيم ولكن يجب إجراء بعض المناورات الخفيفة لإخفاء الحقيقة .. وستكون ليسبون هى نقطة الانطلاق .

– وبعدها

أسرع « دى لو » بكتابة بعض الأسطر على ورقى بيضاء

– هذه أسماء لخمسة من عملائنا ... وستكون لديهم تعليمات لمحاولة الاتصال بك .

وعندما همت الراقصة الحسناء بدس هذه الورقة فى حقيبتها أمسك « دى لو » بيدها .

– لا .. عليك بحفظ هذه الأسماء عن ظهر قلب .. أمسكت « ماتا هارى » بالورقة لعدة ثوان ثم أعادتها إليه

– هذا يكفى .. لدى ذاكرة قوية .. ولكن عندما يقدر لى النجاح فى مهمتى .. يمكن عندئذ فتح باب الحديث حول المال .

– ربما ولكن المطلوب النجاح أولا فى مهمتك .

ارتسمت على وجه « دى لو » ابتسامة ارتياح وهى تغادر الحجرة ، لقد نجح فى رسم مناورة بارعة ، ولاشك أن شيئاً ما قد يبدو غامضًا الآن ، ستتضح كافة تفاصيلة عن قريب .

حقيقة أن ما يحدث فى بلجيكا يدخل ضمن اهتماماته الثانوية ، ولكن الموضوع الأهم هو خط سير الرحلة ، التى تعتزم « ماتا هارى » القيام بها ، فليس من قبيل الصدفة أن يصرّ « دى لو » على أن تكون ليسبون ضمن خط الرحلة لقربها من مدريد العاصمة الأسبانية التى تزخر بعدد هائل من الجواسيس الألمان ولو أن « ماتا هارى » تعمل حقيقة فى خدمة الأعداء كما يظن ، فلابد أن تعرج فى طريقها على مدريد ، وهناك تقع فى شراك الفخ الذى أعده لها « دى لو» بإتقان بالغ .

حقيقة الفخ المنصوب تعتمد على أفكار بسيطة للغاية وهى مركزة فى الأسماء الخمسة ، والواقع أن الأسماء الأربعة الأولى مزيفة ولا وجود لها فى عالم الواقع ، وكلها من وحى الخاطر فيما عدا الاسم الخامس فهو حقيقة

واقعة ، وله وجود حقيقى ، وهو اسم لعميل مزدوج ممن قرر أعضاء المكتب الثانى الفرنسى التخلص منهم ، ولو حدث أن قام الألمان بإعدام هذا العميل رميًا بالرصاص خلال الأسابيع القليلة القادمة ، فهذه علامة مؤكدة على اتهام ماتا هارى بالغدر والخيانة وفقًا لتقديرات الكابتن دى لو .

دارت الأيام وقد نقلت التقارير بانتظام إلى مكتب الكابتن « دى لو » ، وكلها تؤكد وصول « ماتا هارى » إلى مدريد ، وتوجهها على الفور لمقابلة « فون كال » ، و « فون كروهن » الملحقين العسكريين فى السفارة الألمانية ، ومع ذلك وبالرغم من هذه التقارير التى تسىء إلى الراقصة إلا أن الكابتن « دى لو » قرر أن يمنحها فرصة أخرى لإثبات حسن النوايا ، خاصة وهو العليم بأن أعمال التجسس تتطلب وقتًا طويلاً حتى يتحقق الاتصال مع الأعداء ، وحتى يستطيع الجاسوس أن يحقق نجاحًا ، وربما تكون « ماتا هارى » تعمل على استغلال علاقاتها القديمة بالجانب الألمانى حتى تعمل بكفاءة وإخلاص فى صالح الكابتن « دى لو » الذى كان يأمل أن تساعده « ماتا هارى » فى الحصول على تفاصيل دقيقة ومعلومات مؤكدة عن أسطول الغواصات الألمانى .

مرت أسابيع أخرى وفجأة لاحت فى الأفق بوادر الفشل وخيبة الأمل ، وبدأ ذلك فى ليسبون حين حجزت « ماتا هارى » مكانًا فى الباخرة المتجهة إلى إنجلترا ، حيث استقرت هناك لفترة من الزمن ، ومن حسن الطالع وصول هذه المعلومات إلى الكابتن « دى لو » فى الوقت المناسب ، حيث أجرى اتصالاً تليفونيًا سريعًا بزملائه فى مكتب مقاومة الجاسوسية الإنجليزى وبناء على توصيات مشددة منه تم طرد « ماتا هارى » من إنجلترا وترحيلها إلى أسبانيا .

سارت الأمور بعد ذلك على نفس النسق السابق ، حيث واظبت « ماتا هارى » على زيارة السفارة الألمانية فى مدريد بصفة متكررة ، ومن حظها

التعس كانت المعلومات تتدفق على الدوام أمام كابتن « دى لو » الذى تبددت جميع شكوكه ، وأصبح على ثقة متزايدة من خيانة « ماتا هارى » .

توافرت الأدلة لدى « دى لو » وكانت أول إشارة واضحة فى هذا الصدد ، هى قيام الألمان بإعدام الجاسوس المزدوج رميًا بالرصاص ، وفقا لتوقعات « دى لو » ، أما الإشارة التالية فلم تصدر من مدريد ، ولكن من برج إيفل ويجدر بهذه المناسبة الإشارة إلى أن هذا الصرح الباريسى كان مزودًا بواحد من أقوى أجهزة التقاط الرسائل اللاسلكية الموجودة فى أوربا آنذاك ، وكان قادرًا على التقاط الرسائل المتبادلة بين الأسبان والألمان ، ولما كان أمر وجود هذا الجهاز مجهولاً بصفة قاطعة عن الألمان ، لذا كان من السهل حل أسرار الشفرة بمعرفة رجال المكتب الثانى بفرنسا .

وفيما يلى مضمون الرسالة اللاسلكية التى تم وضعها أمام الكابتن « دى لو » ، وهى مرسلة من مركز القيادة العامة الألمانية القابع فى السفارة الألمانية بمدريد « هـ ٢١ ، أحسن عميل فى مواقع القتال الألمانية اطلبوا من هـ ٢١ العودة إلى فرنسا لمواصلة أداء المهمة الموكلة إليها ... ثم تسليم هـ ٢١ شيكًا بمبلغ ٥٠٠ فرنك » .

أما أفضل دلائل الاتهام .. ظهرت بعد عدة أيام ففى ٣ من يناير ١٩١٧م ، عادت « ماتا هارى » إلى باريس ، وبهذه العودة السريعة تأكدت الشكوك لدى الكابتن « دى لو » إلا أنه قرر تأجيل إصدار أمر القبض عليها ، بالرغم ما فى ذلك من مغامرة ، إذ تتزايد احتمالات قدرتها على الهرب والفرار ، ولكن هناك اعتبارات أخرى هامة ، يجب وضعها فى دائرة الاهتمام ، منها ضرورة متابعة خطواتها التالية فى فرنسا ، لعل ذلك يساعد على الكشف عن أسرار أخرى مازالت غامضة ، يصعب إدراكها فى مثل هذه الظروف ، ولذا قرر « دى لو » أن يترك العنان « لماتا هارى » كى تتصرف بحرية أكبر ، وأصدر أوامره بضرورة متابعة حركاتها عن كثب ، وبطريقة لا تجعلها تحس بالشرك المنصوب لها .

وهناك سبب آخر لا يقل أهمية عن الأسباب السابقة ، دفع رجال المكتب الثانى لتأجيل عملية القبض ذلك لأن التعجل فى إصدار مثل هذا القرار ، قد ينبه الألمان ويدفعهم للبحث عن الطريقة التى تم بها الكشف عن سر الراقصة قد يربطون بين هذا الإجراء ، وبين الرسالة اللاسلكية الأخيرة ، وقد يدركوا بالتالى أن أسرار الشفرة الخاصة بهم قد أصبحت معروفة لدى الفرنسيين مما يدفعهم لتغييرها ، وبذا تضيع واحدة من أهم الأسرار التى يحرصون كل الحرص على إخفائها .

أدار الكابتن « دى لو » مهمة مراقبة ومتابعة جميع أفعال الراقصة بمهارة بالغة ، وبناء على الأفكار السابقة قرر « دى لو » أن يجرى مراقبة دقيقة لكافة تحركات الراقصة ، وأن يضعها تحت المراقبة اللصيقة ، ومع ذلك كانت تنتابه من حين لآخر وساوس باحتمال تمكنها من الفرار والهرب .

خلت جميع التقارير الواردة من أى نشاط مهين للراقصة ، بل على العكس ، فكثيرًا ما صدرت عنها أقاويل وتصاريح ملتهبة ، كلها حب فى فرنسا والاشادة برجالها الأكفاء ، ولما يئس الكابتن « دى لو » من الحصول على معلومات أكثر ، وعندما تأكد من سكون الموقف أصدر قرارًا بإلقاء القبض على « ماتا هارى » ، فى فجر اليوم الرابع عشر من شهر فبراير ١٩١٧م التف عدد كبير من الجنود برئاسة بعض الضباط حول فندق بالاس الذى تقيم فيه الراقصة .. طرق مفوض الشرطة باب الغرفة ، كانت عقارب الساعة وقتها تشير إلى الساعة السابعة صباحًا ... ولكنه لم يسمع ردًا ، وعندما طرق مفوض الشرطة الباب عدة طرقات قوية متتالية .

– افتحى الباب وإلا اضطررنا للدخول عنوة . مرت لحظات من الصمت وبعدها سُمِعَ صوتًا غامضًا .

– تفضل بالدخول ، هذا إذا لم تجد حرجًا فى اقتحام غرفة النوم الخاصة بسيدة فى مثل هذه الساعة المبكرة .

انفتح الباب واقتحم المفوض ومن معه من الرجال الحجرة ، كانت « ماتا هارى » مرتدية روبًا خفيفًا وشعرها مشوشًا ، وشاهدها الرجال لأول مرة عن قرب وقد اتضحت حقيقة عمرها الذى بلغ الأربعين ، الوجه خال من المساحيق والوجنات منتفخة والعيون غائرة ، أشار مفوض الشرطة إلى بارفان جانبى ، وجلس على مقعد مجاور فى انتظار انتهائها من ارتداء ملابسها وإتمام زينتها .

أصبحت « ماتا هارى » الآن تحت رحمة العدالة العسكرية ، استغرق التحقيق القضائى فترة طويلة وانهمك المحققون فى البحث والتفتيش عن ماضى الراقصة ، والحوادث السابقة من أجل تحديد عناصر الاتهام ، خاصة فيما يختص بالرسالة اللاسلكية ، ولكن أصيبت جميع محاولاتهم بالفشل الذريع ، وانتهى التحقيق إلى طريق مسدود وقرروا فى النهاية ترك القرار النهائى إلى القاضى .. وفى يوم ٢٥ يوليو ١٩١٧م مثلت « ماتا هارى » أمام الدائرة الثالثة للحرب .

وقفت الراقصة فى قفص الاتهام مرتدية رداء أزرق اللون ذا صدر متسع وعلى رأسها قبعة مثلثة الأركان ، وجلست فى مكانها بهدوء ترتسم على شفتيها ابتسامة رقيقة .

اصطف فى صدر القائمة ستة قضاة عسكريون تحت رئاسة الكولونيل « سومبرو » ، ومثل الادعاء مفوض الحكومة « مونريه » ، شاب صغير السن ملتحى ، كان يعمل فى الحياة المدنية قبل التحاقه بالجيش كممثل للنيابة العامة والذى أصبح بعد مرور ٢٨ عامًا من هذه المحاكمة المدعى العام فى فترة حكم بيتان دلافال ، واكتسب شهرة مدوية بقساوة القلب والحقد والشراسة .

تولى عملية الدفاع رجل جاوز الخمسين من عمره ، دخل إلى القاعة فى هدوء وضغط على يد « ماتا هارى » مشجعًا ، ثم أرسل إليها ابتسامة ودودة ، إنه السيد « كلونيه » ومعروف عنه أنه أحد عشاقها القدامى .

بدت « ماتا هارى » فى قفص الاتهام رابطة الجأش مبتسمة ، وكأن شيئًا لا يعنيها ، وبدا الرئيس « سوميرو » فى توجيه الأسئلة وإدارة الجلسة .

– ثابت من الأوراق أنك تناولت الغذاء مع رئيس شرطة برلين فى يوم إعلان الحرب .

– سبق لى التعرف برئيس البوليس فى صالة الرقص التى كنت أعمل بها ، وفى ألمانيا يتولى البوليس مسئولية الرقابة على ملابس الراقصات ، وكثيرًا ما حضر رئيس البوليس للتفتيش وبهذه الطريقة تم التعارف بيننا .

استمر الرئيس فى استجواب الراقصة .

– وبعدها تم التعارف بينك وبين رئيس مكتب الجاسوسية الألمانى الذى كلفك بمهمة فى باريس ، وحصلت منه على مبلغ ٣٠٠٠ مارك ، وتم تسجيلك فى كشوف الجواسيس التابعة للمكتب الألمانى تحت اسم هـ ٢١ .

بدا السؤال قاسيًا ومحرجًا وأجابت ماتا هارى بعد لحظات من الصمت .

– حسن هذا حقيقى .. كان رئيس مكتب الجاسوسية الألمانى عشيقًا لى ... ومنحنى اسما حركيًا حتى يكون الاتصال بيننا سهلاً ، كما منحنى ٣٠٠٠ مارك وهى ليست مقابل الاشتراك فى عمليات التجسس ولكنها هدية .

اعتقدت « ماتا هارى » للوهلة الأولى أن إجابتها مقنعة .. ونظرت فى اتجاه القضاة وهى على ثقة من وجاهة ردودها ، ولكنها رأت فى عيون قضائها العسكريين القسوة والصرامة ورسخ فى ذهنها أن خطأ ما وقعت فيه .

استمر الكولونيل « سوميرو » فى توجيه الاتهامات .

– انتقلت إلى صفوف القتال الأمامية واستمرت إقامتك فى فينيل لعدة شهور بدعوى العناية بالجرحى .

ولأول مرة ظهر الانفعال فى صوت « ماتا هارى »

– هذا حقيقى لقد تفانيت فى خدمة جندى روسى بائس تعيس الحظ ، هو الكابتن « ماسلوف » الذى فقد بصره ، ولقد حاولت التكفير عن حياتى السابقة بتكريس بقية أيام عمرى فى تعزية ومواساة عليل ذى عاهة – ضابط تعيس الحظ بائس يهيم بى غرامًا وهو الشخص الوحيد الذى أحببته بصدق فى حياتى .

وبالرغم من صدق العبارات وحرارة الكلمات الصادرة من « ماتا هارى » ... إلا أنه لم يظهر على وجه المحلفين أى تأثر ... استمر الرئيس سومبرو فى استئناف استجوابه فى رباطه جأش .

– سافرت إلى أسبانيا ولديك تعليمات مباشرة من الكابتن « دى لو » بخصوص العمل على الحصول عن معلومات عن الغواصات الألمانية ، كيف أمكنك أداء هذه الوظيفة دون الاتصال بالأعداء .

وهنا تدخل مستر « كلونيه » صارخًا

– لعلك تعنى أن موكلتى تلقت تعليماتها من السماء !! ماذا تعنى بحق السماء بقولك « الاتصال بالأعداء ؟ إن محاولة موكلتى « للاتصال بالأعداء » هو بعينه تنفيذ صادق وأمين لأوامر الكابتن « دى لو » ... أليس التفسير المنطقى والمعقول لأوامر الكابتن « دى لو » لموكلتى هو محاولة « الاتصال بالأعداء » .

ولا شك أن المحامى قد أحرز نصرًا موفقًا بهذا التعليق الساخر .

انتقل الاستجواب إلى أكثر أدلة الاتهام حساسية ، ودارت الأسئلة حول الرسالة اللاسلكية الملتقطة عن طريق برج إيفل وحول مبلغ الـ ٥٠٠٠ مارك التى دفعتها السفارة الألمانية للعميل هـ ٢١ لتنفيذ مهمتها فى فرنسا .

ومرة أخرى لم تحاول « ماتا هارى » الإنكار ، واستمرت فى نفس طريقتها السابقة من الاسترسال فى الاعترافات .

– هذا بالضبط ما حدث ولكن الملازم « فون كروهن » كان واحدًا من عشاقى ووجد من المناسب أن يمنحنى هدية مالية ، وفضل أن تكون هذه الهدية عن طريق حكومته ... هذا بالتحديد ...

وهنا بالرغم من صوتها الجهورى الثابت ، وبالرغم من الوقار الذى اتسمت به تصرفاتها عند إلقاء هذه الاعترافات ، إلا أن القضاة الستة ومفوض الحكومة انفجروا فى الضحك ... وهنا جحظت عينا « ماتا هارى » ، وأدركت للمرة الأولى مدى المأزق الذى تعانى منه .

– أنا على ثقة أيها السادة ... هذه النقود مقابل ليالى الغرام التى قضيناها معًا .

استدعى الدفاع عددًا كبيرًا من الشهود ، كلها شخصيات رفيعة المستوى ممن طارحتهم « ماتا هارى » الغرام فى ليالى الهناء السابقة ، ولكن فيما عدا « جوليوس كامبون » سفير فرنسا السابق لدى الحكومة الألمانية ، لم يحضر أحد ، وتلا الرئيس « سوميرو » العديد من رسائل الاعتذار مصحوبة بشهادات مرضية ، وعندما جاء الدور على الكابتن « ماسلوف » للإدلاء بشهادته ، أخرج الكابتن « سومبرو » ورقة من ملف أمامه الكابتن « ماسلوف » لا يستطيع تنفيذ الأمر الصادر له بالمثول أمام هيئة المحكمة بناء على توصيات الأطباء .

أصيبت الراقصة بصدمة مؤلمة وعلا وجهها شحوب ، ولاشك أنها كانت صادقة تمامًا عندما أعلنت أن الكابتن « ماسلوف » هو الحب الحقيقى الصادق الوحيد فى حياتها ، ولا يمكن التعبير بكلمات صادقة عن مدى الألم الذى بات واضحًا على وجهها ، إنه مزيج من الألم والخوف من مصيرها المؤلم وتمتمت هامسة :

« وماذا يبقى بعد ماسلوف ... »

وجاءت ساعة مرافعة النيابة جافية قاسية ، قام « مورنيه » باستجواب

الراقصة بقسوة أرهقتها ، ووجه إليها العديد من الأسئلة المتلاحقة والاتهامات القاسية ، وبعدها قام السيد « كلونيه » بدوره فى الدفاع .. استغرقت المرافعة وقتًا طويلاً ، ودافع عنها دفاعًا مستميتًا .

انتقلت هيئة المحكمة إلى غرفة المداولة التى استغرقت وقتًا قصيرًا لا يزيد عن عشرة دقائق .. وطبقًا للقانون اصطفت فصيلة من الجنود وقوفًا احترامًا لهيئة المحكمة أثناء قيام رئيس المحكمة بالنطق بقرار المحكمة الذى جاء نصه كالتالى :

– باسم الشعب الفرنسى قررت المحكمة باتفاق جميع الآراء بالحكم على « مرجريتا جيرترود زيل » بالإعدام .

صرخ السيد « كلونيه » فى صوت منتحب ورددت « ماتا هارى » فى دهشة بالغة

– مستحيل .. مستحيل .

ولكن العارف ببواطن الأمور يدرك تمامًا أن ما كان يبدو بالأمس من الأمور المستحيلة أصبح الآن وفى الظروف الحالية أمرًا ممكنًا نظرًا للظروف القاسية التى تمر بها البلاد ، ففى سنة ١٩١٧م كانت فرنسا تجتاز أحل الأوقات منذ بدء الحرب ، حيث تعرض هجومها المضاد الذى تم خلال شهر أبريل من نفس العام لفشل دموى ذريع ، وبعدها تركزت جميع مقاليد الحكم فى يد بيتان ، وحدث تمرد بين صفوف الجيش وسادت فكرة أن السبب الرئيسى فى هذه الهزيمة النكراء يعود أساسًا لانتشار الجواسيس فى مناطق متعددة من الجيش الفرنسى ، وبتكرار الشواهد الواحدة تلو الأخرى رسخ هذا الاعتقاد بالأذهان وبظهور قضية « ماتا هارى » على مسرح الأحداث كان الرأى العام مجهزًا للانتقام والثأر ، وهكذا لم تحظ قضية ماتا هارى أى تعاطف خاصة وأنه كثير ما تم إعدام العديد من الجنود رميًا بالرصاص لاتهامات أقل بكثير من التهمة الموجهة لماتا هارى .

ومع ذلك بذل الأصدقاء القدامى مجهودات لإنقاذ الراقصة وموريست ضغوط من شخصيات مرموقة سبق لهم التعرف على « ماتا هارى » من أجل تخفيف الحكم ، ولكن باءت جميع هذه المحاولات بالفشل الذريع .

وفى فجر يوم ١٥ أكتوبر ١٩١٧م اقتحم « مورينيه » ومعه مجموعة من العسكريين الزنزانة الخاصة « بماتا هارى » ، التى كانت مستغرقة بالكامل فى النوم العميق بتأثير المادة المنومة التى أضافها طبيب السجن إلى طعامها فى الليلة السابقة ، وبذلت محاولات مضنية لإيقاظ السجينة من سباتها ، وبعد مرور وقت غير قصير فتحت عينيها المجهدتين وجحظت عينيها من الرعب عندما علمت أنها ساعة تنفيذ الحكم وصرخت

– مستحيل ... مستحيل

وتصلب جسدها بشكل مثير ، ولكنها سرعان ما تماسكت وتحكمت فى أعصابها المنهارة ، والتصقت بالأخت « ليونيد » سجانتها وحارستها فى الزنزانه ثم همست

– لا تحزنى أيتها الأخت ... وسترين مقدار ما أمتلك من شجاعة .

وطلبت ارتداء أفضل ملابسها وأكثرها إثارة وأخذت تناجى نفسها بغضب وحنق .

– أوه ... أيها الفرنسيون .. لأى سبب تحكمون على بالموت ؟ وهل إزهاق روحى ظلمًا وعدوانًا سيفتح أمامكم أبواب النصر .. وأنا على أية حال لست فرنسية .

وانتهت « ماتا هارى » من ارتداء فستان من الحرير الرمادى اللؤلؤى مزدان بكساء من الفرو ، ووضعت خمارًا من اللونين الأبيض والأسود .

اقترب منها القس « داربو » وأخليت الحجرة فيما عداهما لبضع دقائق ، ثم انفتح الباب من جديد ، وقفت ماتا هارى منتصبة القامة وقالت فى تشامخ :

– أنا على أتم استعداد .

اقترب منها أحد الضباط وسألها إذا ما كان لديها ما تود الاعتراف به فى لحظاتها الأخيرة .. ولكنها أجابته باحتقار

– لا ... ليس لدى ما أريد الاعتراف به ... وإذا كان هناك شيء ما فإننى أفضل الاحتفاظ به لنفسى .

ألقى الدكتور « سوكيه » الطبيب الشرعى سؤالاً آخر ، وقد يبدو لك عزيزى القارئ أن التأخير فى تنفيذ الحكم فى مثل هذه الظروف يعتبر من الأمور غير الإنسانية ولكنه القانون الذى تنص المادة ٢٧ من قانون العقوبات بسؤال المتهمة هذا السؤال الذى تولى دكتور « سوكيه » مسئولية إلقائه .

– مدام « مرجريتا زيل » .. هل أنت حامل .. لا يخفى عليك أنه لا يمكن توقيع العقوبة عليك إلا بعد إتمام عملية الولادة .

أجابت ماتا هارى بلهجة ساخرة

– لا ... بالتأكيد لا .

تحرك الموكب ببطء واتكأت المتهمة على ذراع الأخت « لونيد » .

– كثيرًا ما سافرت أيتها الأخت .. حسن ولكن هذه هى آخر رحلة لى ... إلى حيث لا عودة هيا ... تشجعى .. لا تبك يا عزيزتى .

وصل الموكب الصغير إلى باب السجن حيث يجب الانتهاء من إجراء شكلى بتسجيل الأسماء .. وعندها طلبت « ماتا هارى » الإذن بكتابة ثلاث رسائل ... واحدة لابنتها وأخرى لكابتن « ماسلوف » ، والثالثة لموظف فرنسى مرموق وسلمتها للسيد « كلونيه » .

وبسرعة وضع الحراس المتهمة داخل عربة أقلعت فى الحال ، جلست

« ماتا هارى » بين القس « داربو » والأخت « لونيد » التى تولت مسئولية الوعظ والإرشاد .

– فى لحظة الوداع .. وعند الاستعداد لمقابلة الرب يجب أن يكون قلبك خاليًا من الحقد والضغينة .. إنها لحظة التسامح للقاء الرب بقلب صافٍ سليم .

تقلص وجه المتهمة

– ومع ذلك لا يمكننى العفو والسماح عن الفرنسيين .

– ولكن يا بنيتى ... هذا أمر واجب .

ترددت « ماتا هارى » قليلاً ثم همست بصوت خفيض .

– ما دامت هذه رغبتك ... أنا أطلب لهم العفو والسماح عند الرب .

توقفت العربة فجأة أمام أرض فضاء ، وبدا الموقع موحشًا وفظيعًا حيث اصطف اثنا عشر جنديًا بملابسهم الزرقاء أمام تل من الرمال ، وقفت « ماتا هارى » أمام عمود الإعدام ، ووجهت حديثها الأخير نحو الأخت « لونيد » .

– هيا قبلينى بسرعة وابتعدى بعدها .. اختارى لنفسك مكانًا على الجانب الأيمن لأننى سأصوب نظرى تجاهك ... يالله .

رفضت « ماتا هارى » أن تضع رباطًا فوق عينيها ، كما رفضت القيد إلا أن الضابط عمد إلى ربطها بالحبال من وسطها ... وقرأ ضابط آخر نص الحكم .. وقف الجنود على بعد عشرة أمتار ... وجهت « ماتا هارى » بصرها نحو الأخت « لونيد » ، وأومأت إليها برأسها إيماءة خفيفة مع ابتسامة رقيقة ، أعطى القائد إشارة التنفيذ وانفجرت دفعة من الرصاص ، انطلقت من بنادق الاثنى عشر جنديًا وتهاوى الجسد ببطء ، وبعدها سمع صوت النفير ، وتفرق جمع الجنود .

لم يطلب أحد استلام الجثة ...وبعد القيام بالعديد من الإجراءات غير الإنسانية تقررتسليم الجثة إلى طلبة الطب لتشريحها .

والآن يلح على الذهن سؤال حائر ... هل تستحق « ماتا هارى » هذا العقاب الصارم ؟ اليوم يجيب الكثير من الناس على هذا السؤال بالنفى ، من النادر الحكم على امرأة بالإعدام رميًا بالرصاص ...كما أن ما أبدته « ماتا هارى » من شجاعة وبسالة إزاء هذا الموت الفظيع ، ضرب فى مقتل كل التخيلات والأقاويل حيث كثيرًا ما ساد الاعتقاد بين الناس أن امرأة تمتلك كل هذا القدر من الشجاعة ، لا يمكن أن تتخلق بأخلاق الجواسيس .

والواقع أن الحرب بكل ما فيها من أهوال ودمار لا يمكن أن تنسجم ، أو تتفق مع « ماتا هارى » ذات الشخصية البسيطة المرحة ، مثل هذه الإنسانة لا يمكن أن تتفهم بسهولة أو تستسيغ على الإطلاق نوعية الرجال الذين يبدلون الدماثة والخلق الطيب بقناع من الصرامة والقسوة ، والذين يرسمون خطوطًا جديدة بين العواصم ، لا يمكن اجتيازها ويتقاتل بسببها الشباب ويسقطون صرعى بلا قضية .

الوقائع تؤكد أن « ماتا هارى » لم يكن لها ناقة ولا جمل فى المعارك الدائرة ، ولعلها كانت ترى أن الحرب تحرمها من الانطلاق فى حياتها الماضية .

المال .. المال فقط ، هو ما كانت تبحث عنه « ماتا هارى » ، وهى بالفعل كانت تكتسب الكثير من النقود ، دون أى نية حقيقية للوقوع فى المحظور ، ولكن الهدف الرئيسى ومسعاها الحقيقى كان دائمًا ودومًا وراء جمع النقود ، ولم تفكر إطلاقًا فى الوقوع فى حبائل وشراك الجاسوسية .

هذه بلاشك هى الحقيقة .. ولكنها لم تكن كذلك عام ١٩١٧م .